من صفات المنافقين

د . محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد فيا أيها المسلمون، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن فريق ممن ابتليت بهم الأمة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقال في شأنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ وقد وصفهم النبي ﷺ عليه وسلم بصفات كثيرة فيما رواه البخاري قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:" آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان" وروى البخاري أيضاً عن عبد الله عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال:"أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر".

أيها المسلمون، ظاهرة النفاق من أشد ما ابتلي به المسلمون في تاريخ هذه الأمة، والنفاق يعني أن يظهر الإنسان في تصرفاته ومظهره صورة الإسلام، فمظهره يدل على أنه مسلم، وكلامه يدعي فيه أنه مسلم، ولكنه يبطن الكفر، ويبطن كراهية الإسلام والكيد له، ولعل من أشد النبي ﷺ ما تعرض له في تاريخ الدولة الإسلامية التي أقامها كيدَ المنافقين ومكرهم، وللمنافقين علامات في علاقتهم مع ربهم وفي علاقتهم مع الناس، أما في علاقتهم بينهم وبين الله فقد أشار البيان الإلهي إلى ذلك بقوله:﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ – أي محبط خداعهم – وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وقد أشار إلى ذلك البيان الإلهي في أول سورة البقرة، تحدث عن المؤمنين في ثلاث آيات، وعن الكفرة بآيتين، ثم أسهب في بيان صفات المنافقين، فقال : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ

أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ۞ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ۞ اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أما مع الخلق فللنفاق في المدينة المنورة تاريخٌ له آثاره الخطيرة ومظاهره الأخطر، ما ترك المنافقون وسيلة من وسائل الكيد للإسلام إلا واستخدموها ومارسوا أنواع الكيد للإسلام والمسلمين، هم أولاً يكذبون، ثانياً: يخذلون الأمة في ساعة الشدة، ثالثاً: يتعاملون مع العدو ضد أبناء أمتهم. لاحظوا في أول امتحان عندما نقض بنو قينقاع العهد مع النبي ﷺ ومع المسلمين، فأساؤوا لامرأة من المسلمين وتحدوا النبي ﷺ وأظهروا ما يبطنون من العداء والكراهية والحقد على الإسلام والمسلمين، فاقتضى الأمر بعد خيانتهم وقتلهم لمسلم وإساءتهم لعرض امرأة مسلمة أن يجليهم من المدينة، فسارع عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق في تاريخنا إلى الوقوف مع اليهود ضد النبي ﷺ وضد الإسلام، وحال بين النبي ﷺ وبينهم، وقال للنبي ﷺ: (لا والله لا أدعك تستأصلهم في غداة واحدة أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع كانوا لي في الملمات) اتخذوا عدو الله وعدو الإسلام ولياً لهم وصديقاً لهم في مواجهة الإسلام والمسلمين؛ وهم الذين انتهكوا عرض امرأة مسلمة وقتلوا مسلماً ونقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، و قد تكرر الموقف نفسه في يوم بني النضير. ويوم ذهب المسلمون إلى غزوة أحد انسل من الجيش بثلاثمائة مقاتل وهم بحاجة إلى مقاتل، ليخذّل في الصف الإسلامي. ويوم غزوة الأحزاب، إذ أحدق المشركون بالمدينة ونقض اليهود العهد – يهود بني قريظة – انظروا إلى ما قاله ربنا تبارك وتعالى عنهم ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۞ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ – لو أن المشركين تمكنوا من دخول المدينة لكانوا مع صف المشركين – لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ هذه من صفاتهم ولاحظوا صفة أخطر من هذه وتلك تتجلى اليوم، يوم انتصر الإسلام، وتمكنت قاعدته في المدينة لم يجدوا غضاضة في أن يتعاملوا مع الروم ضد المسلمين وضد الإسلام، ولاحظوا الأسلوب الدنيء الذي استغلوه أو فعلوه أو مارسوا خيانتهم به إذ بنوا مسجداً قريباً من مسجد قباء، وطلبوا من النبي ﷺ أن

يصلي في هذا المسجد الذي أقاموه من أجل العجزة والضعفاء، على حد زعمهم، وكان النبي ﷺ متجهاً إلى غزوة تبوك فقال: حتى أرجع، فنزلت فيهم الآيات التي كشفت خبيئة مكرهم يقول ربنا تبارك وتعالى في حقهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ-قباء- أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ. فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ لقد جعلوه وكراً للتآمر على الإسلام والمسلمين، ومركزاً تحاك فيه المؤامرات من خلال أبي عامر الصيفي رجل الروم في المدينة المنورة، للإساءة للإسلام والإيقاع بين المسلمين. ومن مكرهم أنهم لا يألون جهداً في إحداث الوقيعة في المجتمع، فقد حصل خلاف بين شابين في غزوة المريسيع، أحد الشابين من موالي الأنصار والآخر من موالي المهاجرين، هما فتيان ليسا على تلك الدرجة من الوعي والالتزام، فنادى أحدهم يا للأنصار ونادى الآخر يا للمهاجرين، والتقط الكلمة رأس النفاق عبد الله بن أبي فقال: (كاثرونا في ديارنا ما نحن وجلابيب قريش إلا كمن قال سمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) وسمع النبي ﷺ بالخبر واشتد الغضب بين المسلمين وكادت تحدث مشكلة كبيرة وفتنة يمكن أن تودي بكثير من المسلمين، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أمرهم بالسير إلى المدينة، وكان من شأنه ﷺ أن يجعل لهم محطات استراحة، ولكنه أمرهم بالمواصلة لكي لا يكون هناك سبيل للغو في القضية التي جرت، وواصل السير إلى أن انهكوا فأمرهم أن يستريحوا فأخلدوا إلى النوم، ثم عاد فأمرهم بالسير إلى أن وصلوا إلى المدينة وبدا اللغو يدور، فجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول إلى النبي ﷺ يقول له : (بلغني يا رسول الله أنك قاتل أبي، فإن كنت تريد قتله فمرني حتى آتي لك برأسه – وقد كان مع إيمانه من أبر الناس بأبيه، ولكن ليس على حساب دينه، وليس على حساب ولائه لله ورسوله – ولذلك قال: إن أهل المدينة علموا أني أبر الناس بأبي، وإني لأكره أن أقتل مسلماً بكافر) وصف والده بأنه كافر. إنه خاف على نفسه من أن تتحرك في نفسه مشاعر العاطفة فتغلب مشاعر الولاء لله ورسوله، فقال له النبي ﷺ :"لا بل نحسن معاشرته مادام بيننا" وأكثر من ذلك، إذ لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول، وأتى ولده إلى النبي ﷺ ليخبره بأن والده قد توفي، ويسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه به، عسى أن يخفف ذلك عنه، فأعطاه النبي ﷺ قميصه، وهو رأس النفاق. بل وأكثر من ذلك، أوتي به إلى المسجد فصلى عليه النبي ﷺ، وكان آخر من ﷺ عليه من المنافقين؛ لأن الله نهاه بعد ذلك أن يصلي

عليهم، طبعاً النبي ﷺ يعلم المنافقين لأن النبي ﷺ يأتيه الوحي من عند الله، أما نحن فلسنا مخولين بأن نحكم على بواطن الناس، نحن نتعامل مع الظواهر، والشريعة تأمرنا أن نتعامل مع ظاهرة النفاق معاملتين، المعاملة الأولى أن نحذر من ظواهر النفاق في سلوكنا وفي مجتمعنا، وأن نحذر ممن يتصف بهذه الصفات، ولكننا لا نتعامل معهم إلا من خلال كونهم مسلمين؛ لأننا نتعامل مع الظواهر والله يتولى السرائر. ظاهرة النفاق عانى منها المسلمون ويعانون إلى قيام الساعة، ونحن اليوم بحاجة إلى أن نقرأ واقع الأمة في ميزان ضوء صفة الإيمان والنفاق، فنحذر من صفات النفاق ونحذر ممن يتصف بها، ونكون على بينة من أمرنا، فإن الولاء لله ولرسوله وللمسلمين وليس لأعداء الإسلام في الشرق والغرب. الولاء للإسلام وللمسلمين، وليس لإسرائيل ولا أميركا ولا لفرنسا ولا لبريطانيا، الولاء لله ولرسوله وللأمة ولمصالح الأمة ولمصير الأمة، والحرص على دم المسلم من أن يسفك في غير حق، أما أن نترك المسلمين يقتتلون تحقيقاً لمصالح الأجنبي وحماية لمصالح إسرائيل فذلك أخطر أنواع النفاق في مجتمعنا، ما من خطر يهدد الأمة كخطر القتل الذي يجري بين مسلم وأخيه المسلم، لاحظوا كم حذرنا ربنا تبارك وتعالى من ظاهرة النفاق، يقول ربنا تبارك وتعالى فيهم: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ثبطوا همتكم ويريدون إثارة الفتنة بينكم، احذروهم لا تصغوا إلى أكاذيبهم، ولا تعيروا تضليلهم أي اهتمام منكم، لتكونوا يقظين، لتكونوا واعين، لتكونوا على حذر فهم يريدون أن يمزقوا مجتمعكم، وأن يدمروا أمتكم وحضارتكم ووجودكم، يحذر ربنا تبارك وتعالى من ظاهرة النفاق التي ألهبت بلادنا بنار فتنة حارقة وحالقة، أذهبت الأخضر واليابس من أجل من؟ ولماذا؟ حماية لتلك الدويلة المسخ المتربعة على مقدساتنا هناك في فلسطين، حماية لمصالحها، حماية لأمنها حماية لوجودها؛ نتنازع ويقتل بعضنا بعضا وندمر بلادنا ونحرق مصانعنا ونقصف مساجدنا وندمرها باسم الإسلام ونكبر الله أكبر، خدمة لمن؟ وتحقيقاً لأي مصلحة؟ ترى لماذا تدمر مساجد الموصل؟ لماذا تدمر مصانع حلب ومنشآتها؟ لماذا يقصف المسجد الأموي ؟ خدمة للإصلاح أم سعياً في الحرية؟ يقول ربنا تبارك وتعالى عنهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ- مظاهر خادعة - وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ — أوتوا منطقاً - كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ يوم الأحزاب العدو محيط بنا وهم يفتتون في همة المسلمين وعضدهم﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ

﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۞ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ يشككون الأمة بدينها تواجههم بكتاب الله فيأتونكم بمصطلحات ما أنزل الله بها من سلطان، تواجههم بحديث رسول الله يقولون هذا الشيء لم يعد مجدياً في زماننا، الله أنزل هذا الكتاب ليكون ملاذاً للمسلمين إلى قيام الساعة، لا من أجل أن يكون فقط لعهد النبوة أو عهد الخلفاء الراشدين، سمعناهم يقولون ذلك، وكرروا هذا الكلام، وهذا الكلام هو دليل على ما في خبيئة نفوسهم.

أيها المسلمون لنمكن صلتنا بربنا وثقتنا بمولانا سبحانه وتعالى ولنحذر من أن يتسلل النفاق إلى قلوبنا، الشك بالله سبحانه وتعالى وبنصره وبوعده وبفضلة وبنعمته وبدينه، والتردد بين الصفين ومحاولة الفت في عضد الأمة وإثارة الفتنة بين أبنائها، نحن اليوم بحاجة إلى أن نبحث عن نقاط الاتفاق، لكنهم يثيرون نقاط الخلاف، نحن بحاجة إلى وحدة الصف هم يبحثون عن تمزيق الصف، نحن بحاجة إلى تقوية أنفسنا، هم يريدون أن يضعفوا الأمة ويفتوا في عضدها.

أسأل الله أن يردنا جميعاً إلى دينه رداً جميلاً وأن يوقظ قلوبنا وأن يهدينا سواء السبيل وأن يجمع كلمتنا على ما يرضيه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم فيا فوز المستغفرين

خطبة الجمعة 2015-03-27